الدلالة الصوتية عند ابن فارس
من خلال معجمه المقاييس

الطالب: عدة جلول

جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

الدلالة الأصلية، أو الدلالة التي يتمحور حولها مفهوم الجذر اللغوي هي من المواضيع التي شغلت بال صناع المعجم العربي بداية من الخليل بن أحمد ومرورا بابن دريد وانتهاءً إلى أحمد بن فارس الذي يُعتبر من علماء اللغة الذين برعوا في صناعة المعجم العربي، فحاول قدر جهده أن يركز كل اهتمامه في الكشف عن الدلالات الأصلية لكل جذر من جذور اللغة العربية التي عالجها في معجمه (مقاييس اللغة) تحت فكرتين أساسيتين وهما: المقاييس والأصول، وفي هذا البحث حاولنا أن نرصد كيف استطاع ابن فارس أن يستنبط الدلالة الأصلية للجذور اللغوية التي عالجها ضمن ما تيسر له من متن لغوي في معجمه السالف الذكر، ليُمَكِن لدارس اللغة إدراك الكثير من معاني الألفاظ؟ وكيف ربط الأصول بعضها ببعض ليخلص إلى الدلالة الأصلية التي هي قطب الرحى للجذر اللغوي - الثنائي أو الثلاثي - ؟

Résumé : La signification originale est centrée autour du sens de la racine linguistique. Ce concept est parmi les sujets auxquels s'intéressent les linguistes arabes commençant par Ibn Ahmed et en passant d'Ibn Dorid pour arriver à Ahmed Ibn Fares, ce denier est l'un des linguistes qui se sont distingués dans la création du lexique arabe où il a essayé de révéler toutes les significations originales pour chaque racine de la langue arabe et qu'il a abordés dans son ouvrage : « les normes de la langue » sous deux idées fondamentales ; les normes et les origines. Dans cet exposé, nous avons essayé d'expliquer la façon dont Ibn Fares a pu obtenir la signification originale des racines linguistiques qui les a traitées dans son ouvrage précité et qui facilite la tâche pour l'apprenant de la langue, celui-ci peut assimiler plusieurs sens et significations et connotations et aussi il peut lier les originales, les unes aux autres pour arriver enfin à la signification initiale qui est le noyau de la racine linguistique, si elle est bilatérale ou trilatérale ?

تمهيد: وجد اللغويون في أواخر القرن الرابع الهجري المادة اللغوية مجموعة ومعدة بين أيديهم؛ "فكان عليهم أن يوجدوا أسسا جديدة يُقِيمون معجماتهم عليها، غير محاولة الجمع التي كان يقتصر عليها مَنْ قبلهم في غالب الأمر، وقد وصلوا إلى أسس مبتكرة نتيجة دراساتهم المعمقة للمواد، التي جمعها الأقدمون"[1]،ومن هؤلاء العلماء ابن فارس، الذي بلغ من حبه الشديد للغة العربية وعشقه لها، أن ألف فيها ضروبا من التأليف، كان منها معجماه (مقاييس اللغة) و (مجمل اللغة)، فكيف تميزت هذه الصناعة عند ابن فارس، خاصة في معجمه

(مقاييس اللغة)، وما المقصود بالمقاييس والأصول؟، وما هي الدلالة الأصلية عنده؟، وكيف استنبطها؟.

1. منهج ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: لقد انطلق ابن فارس في تأليف معجمه - مقاييس اللغة - من واقعه؛ ذلك أن اللغويين قبل ابن فارس كانوا بحاجة إلى تدوين كل ما سمعوه من أفواه العرب قبل ضياعه، وكانت الحاجة إلى جمع اللغة وتدوينها أهم من تيسير الوصول إليها، فلما تم الجمع وجدوا أنفسهم أمام أمر أهم من الأول وهو تنقيح المادة وتنقيتها، وعملُ ابن فارس هذا قد اندرج تحت ظل تيسير المادة اللغوية وسرعة الوصول إليها، وهذا المنهج في التأليف المعجمي رغم صعوبته، إلا أنه يحمل أفكارا جديدة، رغم أنه قد استنبطه ممن سبقه، فقد "استوحى ابن فارس منهجه اللغوي في معالجة مادته ونعني بها (فكرة المقاييس) من شيخه ابن دريد الذي حاول في كتابه الاشتقاق أن يرد أسماء القبائل العربية إلى أصول لغوية اشتقت منها"[2]، فمنهج المعالجة قد اختلف عند ابن فارس عن شيخه وهذا ينم عن شخصية متفردة في عملها.

يقول عبد السلام هارون محقق (معجم المقاييس): "لا يساورني الريب أن المقاييس من أواخر مؤلفات ابن فارس؛ فإن هذا النضج اللغوي الذي يتجلى فيه من دلائل ذلك... وأستطيع أن أذهب أيضا إلى أنه أَلَفَ (المقاييس) بعد تأليفه (المجمل) فإن الناظر في الكتابين يلمس القوة في الأول، ويجد ابن فارس في (المجمل) إذا حاول الكلام في الاشتقاق فإنه يحاول في ضعف والتواء... وأضيف إلى ذلك أنه ألفه قبل (الصاحبي)، إذ ذكره فيه غير مرة"[3]، فابن فارس في كتابه (المجمل) أراد معالجة التوسع أو التكثر من جمع اللغة، ومداخل المعجم، وفي (المقاييس) أراد أن يقرب المعاني من بعضها البعض بأن يربط أفرادها بمعنى كلي.

وتسمية المعاجم قديما كانت تعطي للقارئ الانطباع الأول حول موضوعها، لذلك اهتم اللغويون بهذا الموضوع، فنجد أن ابن فارس "قد أسمى معجمه كله بـ: (مقاييس اللغة) قاصدا به أوجه التشابه،أو الجوامع الاشتقاقية التي تنقاس عليها استعمالات كل جذر من جذور اللغة، وذلك أخذا من المعنى اللغوي للقياس، وهو الدلالة أصلا"[4]، يقول ابن فارس: "الهاء والصاد والراء يَدلُ على قبض شيء وإمالته"[5]، فاستعمالات المشتقة من الجذر اللغوي (هـ ص ر) تدل على قبض الشيء وإمالته.

وعملية تصنيف كتاب (مقاييس اللغة) لابن فارس قد يُشْكَلُ على الدارس، ولذلك: "يجد المطالعُ للمعاجم العربية القديمة أن معجمه هذا يمكن أن يُشْكِل مدرسة قائمة بذاتها، ويتبعه في ذلك معجمه الآخر (المجمل) إلى حد ما، إلا أن الدكتور حسين نصار جعل (المقاييس) ضمن

مدرسة الجمهرة، مع الإشارة إلى أوجه الفرق بين (الجمهرة) و(المقاييس)، وعلى الرغم من ذلك فقد كان (المقاييس) أقرب إلى (العين) منه إلى (الجمهرة)"[6]، فالطريقة التي عالج بها المادة اللغوية في (المقاييس) قريبة من المعجمين السابقين، لكن الترتيب والتبويب مختلف كل الاختلاف عنهما.

اتبع ابن فارس في تأليفه منهجا مغايرا لمناهج المعاجم التي سبقته، فهو يختلف عن منهج ابن دريد الذي رتب مواد معجمه (الجمهرة) على أوائل الحروف،كما يختلف عن منهج الجوهري في (الصحاح) الذي رتب معجمه على أواخر الكلمات، وبناه وفق نظامين؛ نظام الترتيب الألفبائي للحروف، ونظام ترتيب الأبنية في كل حرف، ويشتمل هذا المنهج على النقاط الرئيسية التالية:

1: "قسم المواد اللغوية التي أوردها في هذا المعجم إلى كتب، يستهلها بكتاب الهمزة ويختمها بكتاب الياء.

2: قسم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب هي:

أ: باب الثنائي المضاعف والمطابق.

ب: أبواب الثلاثي الأصول من المواد.

ج: باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية"[7]، هذا المنهج الخاص في معالجة المادة اللغوية التزم به ابن فارس من بداية المقاييس إلى آخره.

وأولُ ما يُلاحظ في منهج ابن فارس أنه عندما طرح نظام التقاليب وضع كل كلمة في موضعها اللائق بها، فلما سار على نظام إيراد الحرف مع ما يليه، تأثراً منه بالخليل وابن دريد ووجد نفسه بعد أن وصل إلى حرف الياء من كل مادة، لا يزال أمامه الكلمات المؤلفة من الحرف والحروف السابقة عليه، فوضعها في آخر الباب بعد حرف الياء، ورتبها الترتيب المألوف أي مبتدئا بالألف فالباء فالتاء حتى ينتهي عند الحرف السابق مباشرة لحرف الباء أو حرف الباب نفسه"[8]، هذا التميز في تدوير الحروف، جعل البعض من الدارسين يُقِرون بصعوبة هذا الطريقة المبتكرة التي تميز بها ابن فارس في معالجة المادة اللغوية لكل باب من الأبواب.

كما أنه التزم في معجمه "بترتيب المواد بالحرف الأول ثم الحرف الذي يليه في ترتيب (أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ... إلخ)، فلو أردنا حرف الجيم مثلا، فإنه يضعه أول الباب ثم ما يليه من ترتيب (ألف، باء...) وهو الحاء ثم ما يلي الحاء وهو الخاء:(جحخ) وهي مهملة، وتليها جحد، لأنه حين يترك الخاء يأخذ بعدها الدال، ثم الذال: جحذ، جحر، جحز، جحس ... إلى (جحا)، وحين

ينتهي من الياء يبدأ بالهمزة، فالياء، فالتاء"[9]، فاعتماده على الحرف الأول ثم الذي يليه ينص عليه دائما في أول الباب بقوله: "باب الفاء والقاف وما يثلثهما، كما في مادة (فقم)"[10]

وبدأ كل باب من أبواب الثلاثي "بالكلمة التي تبدأ بالحرف المعقود له الباب، ثم يأتي بعده الحرف الذي يكون تالياً له في الترتيب الألفبائي، وبذلك فهو يؤلف الحرف المعقود له الباب مع الحروف التالية له حرفاً حرفاً حتى إذا انتهى إلى آخر حرف من حروف الهجاء عاد ليقرنه مع الهمزة فالباء فالتاء وهكذا حتى يصل إلى الحرف السابق لحرف الباب أو حرف الباب نفسه"[11]، ففي: "(باب الهمزة الذي يقال له المضاعف)"[12]. بدأ بمادة (أبَّ) فجعل الهمزة التي هي حرف الباب تقترن بالباء وهو الحرف التالي للهمزة في الترتيب الألفبائي، ثم قرنها مع التاء في (أتَّ)، ثم مع الثاء في (أثَّ)، ثم مع الجيم في (أجَّ)، ويستمر في تأليف الهمزة مع باقي حرف الهجاء حتى يصل إلى حرف الياء ليقرنه مع الهمزة في (أيَّ) .

ورتب الكلمات في باب الثلاثي "بحسب الحرف الثاني منها لاتفاق الحرف الأول فيها دائما؛ لأنه الحرف المعقود له الكتاب كما سبق، كما راعى فيه ترتيب الحرف الثالث أيضا، فيستهل كتاب الهمز مثلا بأبت، فأبج... حتى تنتهي الحروف كلها"[13]، فهو لا يعود إلى الحرف السابق للحرف الذي بدأ به إلا بعد الانتهاء من الحروف كلها. ولقد عوَّل ابن فارس على المقاييس الصحيحة والأصول التي تمتاز بها اللغة العربية في عمله هذا، فما المراد بالمقاييس والأصول عنده؟.

2. مفهوم المقاييس والأصول عند ابن فارس: جاء في مقدمة كتابه (الصاحبي في فقه اللغة): "إن للغة العرب مقاييس صحيحة وأصولا تتفرع منها فروع، وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من الأصول، والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل..."[14]، فالمقاييس والأصول يجب أن تُراعى وتُتبع نظرا لأهميتها لعالم اللغة العربية أولا، ومتعلمها ثانيا، وهكذا يظهر أن الهدف الأسمى عند ابن فارس أولا وأخيرا هو الإعراب . الإفصاح . عن المقاييس والأصول التي أهملها غيره من علماء اللغة.

وقد تعددت الآراء والتعريفات حول معنى (المقاييس)، هذه التعريفات على كثرتها قد تُشتت ذهن القارئ، فيذهب ذات اليمين وذات الشمال حول هذا، ولكننا نَطْمئنُ إلى رأي الدكتور عبد السلام هارون محقق معجم (مقاييس اللغة) الذي يقول: "المراد بالمقاييس ما يسميه بعض اللغويين (الاشتقاق الكبير) الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات"[15]، فغرض ابن فارس هو بيان المعنى أو المعاني الأصلية المشتركة في جميع صيغ المادة، وسَمى هذه المعاني الأصول والمقاييس.

فكلمة مقاييس في اللغة، هي جمع مقياس؛ بمعنى المكاييل أو المعايير، والأصل فيها القياس، وهذا المصطلح الذي استخدمه الفقهاء يدل على: "استنباط مجهول من معلوم، فإذا اشتق

اللغوي صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة في مادة أخرى سمى عمله هذا قياسا، فالقياس اللغوي هو مقارنة كلمات بكلمات، أو صيغ بصيغ، أو استعمال باستعمال رغبة في التوسع اللغوي، وحرصا على اطراد الظواهر اللغوية"[16]، وهذا ما يعطي فكرة واضحة عن عمل ابن فارس؛ فهو يأتي بالمفردة مع شرحها، ثم ذِكْرُ اشتقاقاتها، وضَرْبُ الأمثلة على ذلك.

كما أن ابن فارس بنى معجمه على فكرة (الأصول)، التي تفترض أن جميع مشتقات المادة اللغوية ذات الجذر المشترك تنسل من عائلة واحدة، وأن أساس هذا التناسل هو معناها الأصل، الذي هو قياسها، وأن العرب عرفت هذه المقاييس وبنت عليها كلامها؛ لذلك عمد ابن فارس إلى المادة اللغوية ذات الحروف المشتركة، فصنفها طوائف بحسب رابطة المعنى المشترك وسمى كل طائفة أصلا، وقد عد الأصل الواحد مشتقا بعضه من بعض.

ويذهب الدكتور عبد المجيد هريدي إلى أن الأصول خاصةٌ بالمواد الثنائية والثلاثية والمقاييس خاصةٌ بما زاد على ثلاثة أحرف عند ابن فارس في معجمه (المقاييس)، يقول عن ابن فارس: "نجده يشير في صدر كل مادة لغوية إلى (الأصول) التي تدل عليها المادة الثنائية أو الثلاثية، وهذه (الأصول) التي يذكرها ابن فارس يتبين لنا أنها الدلالة أو الدلالات الأساسية للجذر اللغوي التي تتفرع عنها دلالات الجذر المختلفة، أما (المقاييس) فهي خاصة عنده بالمواد التي جاءت على أكثر من ثلاثة أحرف وهي تتعلق بالتأصيل الاشتقاقي للجذور اللغوية"[17]، فـ: (الأصول) أولاً و(المقاييس) ثانياً عند ابن فارس في معالجته للجذور اللغوية.

3. **الدلالة الأصلية عند ابن فارس:** لقد نالت ألفاظ اللغة العربية نصيبها الوافر من اهتمام اللغويين العرب، وقد انصبت جل جهودهم حول تجلية المعنى المراد من اللفظ، ورأوا أن لكل أصل لغوي . جذر. دلالة تختص به، وهذا ما يمكن التمييز به بين نوعين من الدلالة اللفظية، دلالة الألفاظ المفردة ودلالة الألفاظ المركبة، وكان الاختلاف بين هؤلاء العلماء في طريقة استنباط الدلالة التي يحملها اللفظ ويحيل إليها، لذلك انصب جلُ اهتمامهم حول مفهوم دلالة الأصل. وقد ارتبطت الدلالة الأصلية عند اللغويين العرب بقضية الاشتقاق، وغالبا ما كان يَأخذ بها الصرفيون لإقامة الأوزان عليها، وقد قال السيوطي (ت)عن الاشتقاق في كتاب شرح التسهيل: "هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها، ليدُل بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا وهيئة، كضارب من ضرب، وحذر من حذر، وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة، حتى يرجع منها إلى صيغة، هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروف غالبا"[18]، أي أن دلالة الأصل تلازم المشتقات من هذا الجذر.

يُعَرفُ الشاطبي (ت590ه) الدلالة الأصلية بأنها: "هي التي لا ترتبط أو تتقيد بسياق معين...فاللغة في تصوره ألفاظ دالة على معان، ومن حيث هي كذلك يمكن استمداد المعاني من الألفاظ بطريقتين: إما بالحصول على المعنى المطلق عن طريق الألفاظ المطلقة، وهنا تظهر الدلالة الأصلية للفظ، وإما بالوصول إلى المعنى عن طريق الألفاظ والعبارات المقيدة، وهنا تظهر الدلالة التابعة"[19]، وهذا يعنى أن هناك نوعان من الدلالة، دلالة اللفظ مفردا ودلالة اللفظ من خلال السياق.

وعليه يمكن القول أن الأصل قسمان:

- **أصل لفظي**: وهو ما يُعْرفُ بالحروف الأصول، أي هي: "مادة لما يُبْنى منها من مختلف الأبنية، موجودة في جميعها، من نحو ضَرب وضُرب، فهو ضاربٌ ومضروب، وهي بمنزلة الجوهر؛ أي جنس الذي منه ذلك الشيء"[20]. أي أن مكونات الأصل تظهر مع مختلف الألفاظ التي تتوالد من اللفظ الأم.

- **أصل معنوي**: وهو عبارة عن الدلالة المشتركة العامة، التي تشترك فيها مجموعة من الكلمات، أو الدلالة المحورية القائمة على الحروف الأصول نفسها.

فالدلالة الأصلية هي التي تُستمدُ من المادة الأصلية وتظهر في مشتقات الجذر، وهي التي حرص المعجميون على معالجتها، وشرحها، وضرب الأمثلة لها، وقد سماها الدكتور هاني عبد الرحمان بـ: "الدلالة المشتركة"[21]، وهذا ما نلاحظه عند صُناع المعاجم العرب "فقد اعتمد المعجميون العرب المادة الأصلية كمدخل لمعاجمهم، ولم يعتمدوا جميع المفردات المشتقة، إلا ما خرج منها عن الأصل في المعنى"[22]، فالمعالجة عندهم تسير على خط مستقيم بدءا من الجذر انتهاءً إلى آخر مفردة مشتقة من هذا الأصل.

ونظرا لما للأصل من أهمية كبرى، قرر علماء العربية أن المبدأ الأساس الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي، هو الأصل المجرد من كل زيادة لأن "الألفاظ في المعاجم العربية تندرج تحت المواد التي اشتقت منها، وتفرعت منها، فيما يشبه العائلة التي تعيش في بيت واحد، يتحلقون حول عميد الأسرة، ... يجمعها المعجمي في مكان واحد من معجمه، بمقتضى اشتراكها عضويا ومعنويا في مادة لغوية، وأصل لغوي واحد"[23]، كما تظهر دلالة الأصل فيما طرحه ابن جني (ت 392ه) في كتابه (الخصائص) تحت باب (الاشتقاق الأكبر) وتقوم هذه الدلالة على معنى عاما مشتركا تربط جميع تقاليب الأصل، واستدل ابن جني على ذلك بأمثلة منها مادة (قول)، و(كلم) و(جبر). فالرابطة التي تجمع الأصل اللغوي مع مشتقاته هي رابطة وثيقة.

ولهذا فقد ذهب ابن فارس إلى القول بأن الدلالة الأصلية - دلالة الأصل – هي الدلالة المعجمية، أي المعنى الأصلي للجذر اللغوي، الذي وضعت إزاءه الحروف الأصول، في مواد

المعجم وهذا ما جعل ابن فارس يقول: " أجمع أهل اللغة - إلا من شذَّ منهم- أن للغة العرب قياس، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلان أبدا على الستر"[24]، فالدلالة التي تعطيها الحروف الأصول المكونة للجذر اللغوي كانت الهدف من تأليف ابن فارس معجمه (مقاييس اللغة).

ومعجم مقاييس اللغة في جانبه الإجرائي، يبين أن الدلالة المعجمية هي دلالة الحروف الأصول، على المعنى الأصلي، الذي وضعت له في كلام العرب، "وبذلك يكون ابن فارس سباقا إلى فكرة الأصل في اللفظ والدلالة، في مفردات اللغة، وهي فكرة مرتبطة بالدلالة المعجمية، وجعل الأصل اللفظي - الدال – مقياسا لتحديد الأصيل والدخيل في اللغة العربية"[25]، فمعرفة دلالة الأصل تعطي فكرة أوضح عن دلالة مشتقاتها.

فقد سار ابن فارس في (مقاييسه) على "طريقة خاصة تختلف عما رأيناه عند من سبقه من اللغويين، وذلك بغية الكشف عن مزيد من خصائص اللغة العربية التي تتجلى في استنباط المعنى المشترك، أو الأصل الواحد بين صيغ المادة اللغوية في الثنائي والثلاثي"[26]، فابن فارس لما اهتدى إلى أن هناك معنى أساسيا، أو أصلا واحدا، أو ربما أكثر من ذلك، تشترك فيه جميع معاني المادة الأم، وعليه ألف كتابه المقاييس لتبيين هذا المعنى أو الأصل.

وقد استعمل ابن فارس مصطلحين أساسيين في معجمه (مقاييس اللغة) هما:

الأول: مصطلح (**الأصل**). وقد تردد هذا المصطلح كثيرا عند ابن فارس، ويقابله عند المحدثين "الجذر"، ويعني به الحروف المكونة لأصول الألفاظ العربية؛ وهي الحروف التي تبنى بها مواد المعجم الأصلية، ومن ذلك قول ابن فارس: "الخاء والباء والسين أصل واحد يدل على أخذ الشيء قهرا وغلبة. يُقال: تخبست الشيء: أخذته... والخباسة: المغنم..."[27]، فالحروف المكونة للأصل (خ ب س) تعطي مجتمعة دلالة يدور حولها هذا الجذر وهي: أخذ الشيء.

ونجد كذلك أن الأصل "مصطلح مشترك استعمله ابن فارس في معجم مقاييس اللغة للإشارة إلى ثلاثة معان:

أ: أحدها يوازي المستعمل عند الخليل بن أحمد وهو الذي يسميه المحدثون "الجذر"

ب: والثاني كون الكلمة أصلا للفرع الذي هو إما مشتق منه، وإما استعمال مجازي له، وإما معنى مكتسب زيادة على معناها.

ج: والثالث في مفهوم ابن فارس هو أن طائفة من الكلمات لها معنى مشترك، صنفها حسب كثرتها: من أصيل، وأصل، وأصل كبير..."[28]، وهذه المصطلحات هي الغالبة في التأصيل عند ابن فارس.

الثاني: مصطلح (**القياس**). المقصود به كذلك الدلالة التي تقاس عليها استعمالات هذا الجذر اللغوي، يقول ابن فارس: "الجيم والحاء والفاء أصل واحد، قياسه الذهاب بالشيء مستوعباً"[29]، وبهذا يكون المصطلحان وجهان لعملة واحدة، فالأصل والقياس شيء واحد.

يقول ابن فارس في مادة: (بدأ). (الباء والدال والهمزة من افتتاح الشيء) فهذا هو الأصل ثم ذكر مشتقاته فقال: "والله تعالى المبديء والباديء... ويقال للأمر العجب: بديء... ويقال للسيد: البدء... وتقول: أبدأت من أرض إلى أخرى أبديء إبداء... والبدأة النصيب... والبدوء مفاصل الأصابع"[30].

4. **استنباط الدلالة الأصلية عند ابن فارس:** يقوم منهج ابن فارس كما أشرنا في استنباط الدلالة الأصلية، في أكثر مواده اللغوية على أن: "يُرجع أصول الاشتقاق في المادة اللغوية إلى أصل أو أكثر. وهو في البداية يقدم المادة بالحروف المقطعة التي تكون المادة الأصلية للألفاظ، ثم يعقب عليها ببيان نوعها إن كانت أصلا صحيحا معترفا به، ثم يذكر معاني أصلها، أو أصولها إن كان لها أكثر من أصل، ثم يفصل كل معنى فيذكر استخداماته المتنوعة ومعاني هذه الاستعمالات"[31]، فمعالجة الأصل، أو الأصول للجذر اللغوي ينبني على ما يحيل إليه هذا الأصل من دلالة أصلية أو دلالات أخرى توحي بمعناه.

ولما كان غرضه الأول في الكتاب الكشف عن المقاييس، "فقد أدار عليها علاج المواد، وقدم الأصل أو الأصول التي أُخذت منها معاني المشتقات، ثم شرح هذه الأصول بما فسره من صيغ، ونبه على ذلك في المقدمة، إذ يقول: "وقد صدرنا كل فصل - يريد المادة - بأصله الذي يتفرع منه مسائله حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل، ويكون المجيب عما يُسأل عنه مجيبا عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه، وأخر المعاني المجازية والشاذة في آخر مادتها، كما حذف كثيرا من النوع الأخير خاصة لعدم اتساقه مع أصوله"[32]، هذا هو المنهج العام في معالجة كل مادة عند ابن فارس، المادة أولا، ثم بعدها يأتي التفصيل.

ومحور التفكير عند ابن فارس الاشتقاق "فهو لا يتقبل معنى كلمة إلا بعد أن يحللها في مخبر الاشتقاق، ولهذا فإنه حكم على طائفة من الألفاظ بغموض الدلالة لشموسها على قواعد الاشتقاق، أو لبعد ارتباطها بالأصل الذي أخذت منه، أو لأن العرب ربطت معنى الكلمة بقصة

منسية، أو نقلت مدلول اللفظ إلى نقيضه"[33]، اعتماده على الاشتقاق أعطى للكلمات المراد تأصيلها ما تستحقه من البحث والتقصي عن تفرعاتها واستعمالاتها، فالمنظور الاشتقاقي لمعاني الألفاظ عند ابن فارس قائم على أساس أن معنى الجذر اللغوي هو:"ذلك الجزء المشترك من المعنى، بين المشتقات المختلفة، مضافا إليها معنى الصيغة الصرفية، وإضافات جديدة مختلفة بسبب التطور"[34]، هذه المعاني أو الدلالات مجتمعة تمثل قطب الرحى الذي تدور حوله كل الدلالات المتفرعة عن الأصل.

وعليه فالدلالة الأصلية لجذر ما، هو المعنى الذي يتحقق تحققاً علميا في كل الاستعمالات المصوغة من هذا الجذر. ويعني أنَّ هذا المعنى يتحقق في كل استعمالات هذا الجذر، قال ابن فارس في (هَفَّ): "(الهاء والفاء أصل صحيح يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ في سَير وصَوت)"[35]، فلو قلنا إن الدلالة التي يدور حولها معنى الجذر (هـ ف ف) هي: (خِفَّة وسُرعة في سَير وصَوت)، فهذا المعنى متحقق في كل استعمالات هذا الجذر.

ولو قلنا إن الدلالة الأصلية للجذر (عَقَمَ) هي: (غموضٍ وضيق وشِدّة) قال ابن فارس: "(العين والقاف والميم أصل واحد يدل على غموضٍ وضيق وشِدّة)"[36]، فالمعنى متحقق في كل استعمالات هذا الجذر. فمثلا يقال:

أ: داءٌ عَقُاَمٌ: لا يُبرَأ منه (لغموضه وشدته وضيقه على صاحبه)

ب: و رجل عَقام، وهو الضيّقُ الخُلُق (لما فيه من غموض وشدة وضيق)

ج: عقلٌ عقيم، للذي لا يُجدي على صاحبه شيئًا"[37].

والدلالة الأصلية للجذر (عَمَدَ) هي (الاستقامة في الشيء، منتصبًا أو ممتدا)"[38]، قال ابن فارس في (عمد): (العين والميم والدال أصلٌ كبير، فروعه كثيرة ترجع إلى معنًى، وهو الاستقامة في الشيء، منتصبًا أو ممتدّا، وكذلك في الرّأي وإرادةِ الشيء)"[39]، فالمعنى متحقق في كل استعمالات هذا الجذر. فمثلا يقال:

أ: "عَمَدْتُ فلانًا، إذا قَصدتَ إليه (والاستقامة في ذلك واضحة).

ب: العَمْد: نقيض الخطأ في القتل، (سمي ذلك عمدًا لاستواءِ إرادتك إيَّاه).

ج: وعَمُود الأمر: قِوَامه (وهو الاستقامة الموجودة في ذلك الأمر)"[40].

فمنهجه مبني على أساس تتبع أصل الدلالة المعجمية، وحركاتها وتفرعاتها في المشتقات المختلفة، وهو يبدأ في معالجته لمواده بذكر الأصول المعنوية لكل واحدة منها، ثم يتبع ذلك بفروعها، التي يفسرها على ضوء الدلالة الأصلية.

يقول الدكتور رمضان عبد التواب في معرض حديثه عن الاشتقاق، وكيف وظفه ابن فارس في كتابه (مقاييس اللغة): "وقد حاول، أن يرجع أصول الاشتقاق، في المادة اللغوية الواحدة، إلى أكثر من أصل"[41]، فمنها - أي المادة- ذات الدلالة الأصلية الواحدة، أو أكثر من دلالة.

ويبدو أن ابن فارس كان يميل إلى القول بالأحادية في تعيين الدلالة الأصلية للجذور الثلاثية، ومن خلال تتبع بعضها نستطيع القول أنه أصاب في ذلك، وهذا يعطي القارئ فكرة على أن أحادية الدلالة الأصلية هي الغالبة في اللغة العربية، إذ يقول مادة (شطن): "الشين والطاء والنون أصل مطرد صحيح يدل على البعد، يقال شَطَنت الدار تَشْطُن شطونا إذا غَرَبت. ونوىً شَطونٌ، أي بعيدة"[42]، أي أن هذه المادة اللغوية – الجذر الثلاثي – المتمثل في: (الشين، والطاء، والنون) لها دلالة أصلية واحدة، ثم يأتي بالشواهد على ذلك منها: "ويقال بئر شطون، أي بعيدة القعر، والشطن الحبل، وهو القياس لأنه بعيد ما بين الطرفين"[43]، ومثل كثير في معجم مقاييس اللغة.

ويقول ابن فارس بتعدد الدلالة الأصلية كذلك، يقول في مادة (رعل): "الراء والعين واللام معظم بابه أصلان: أحدهما جماعة، والآخر شيء ينوس ويضطرب. فالأول الرَّعْلَة: القطعة من الجبل. والثاني الرَّعْلة: ما يقطع من أذن الشاة ويترك معلقا ينوس، كأنه زنمة"[44]، فالأصلان رغم أنهما متساويان في عدد الحروف، ولهما نفس الترتيب؛ إلا أنهما متفاوتان أو متباعدان في الدلالة.

ويقول في مادة (خرس) بأن لها ثلاثة أصول: "الخاء والراء والسين أصول ثلاثة؛ الأول: جنس من الآنية، والثاني: عدم النطق، والثالث: نوع من الطعام.

فالأول: الخِرْس، بسكون الراء وهو الدَّنُّ، ويقال لصانعه الخَرَّاس.

والثاني: الخَرَس في اللسان، وهو ذهاب النطق، ويحمل على ذلك فيقال: سحابة خرساء، ليس فيها رعد.

والثالث: الخُرْس والخُرْسة، وهو طعام يتخذ للوالد من النساء"[45]. فهذه الأصول الثلاثة للجذر (خ ر س) تؤول إلى مادة لغوية واحدة، ولكن معانيها مختلفة.

ويقول في مادة (حم□): التي تتعد أصولها إلى خمس "الحاء والميم فيه تفاوتٌ؛ لأنّه متشعب الأبواب جداً. فأحد أصوله اسوداد، والآخَر الحرارة، والثالث الدنوّ والحُضور، والرابع جنسٌ من الصوت، والخامس القَصْد.

فأمّا السواد الفحُمَمُ الفحم. ومنه اليَحْموم، وهو الدُّخان. والحِمْحِمُ: نبتٌ أسود، وكلُّ أسوَدَ حِمْحِم.

ومن هذا الباب: حَمَّمَ الفرْخُ، إذا طلع رِيشُه. قال: * حَمَّم فَرخٌ كالشَّكير الجَعْدِ *

أمّا الحرارة فالحَميم الماء الحارّ. والاستحمام: الاغتسال به. ومنه الحَمّ، وهي الأَلية تُذاب، فالذي يبقى منها بعد الذَّوْب حَمٌّ، واحدته حَمَّةٌ. ومنه الحَميم، وهو العَرَق.

ومنه الحُمَام، وهو حُمَّى الإبل. ويقال أحمَّت الأرض: إذا صارت ذات حُمَّى.

وأمّا الدنُوّ والحضور فيقولون: أَحَمَّتِ الحاجةُ: حَضَرت، وأحَمَّ الأمرُ: دنا.

وأما الصوت فالحَمْحَمة حَمحمَةُ الفَرَس عند العَلْف.

وأمّا القَصْد فقولهم حَمَمْتُ حَمَّهُ، أي قَصَدْت قَصْدَه"[46].

إن تتبع أصل الدلالات المعجمية عند ابن فارس في معجمه (مقاييس اللغة) يشير إلى الكيفية التي تعامل فيها مع المادة اللغوية ذات الحروف المشتركة؛حيث أنه بدأ بتصنيفها إلى مجموعات بحسب الرابطة المعنوية التي تشترك فيها وسماها أصلا، وعد الأصل الواحد منها مشتقا بعضه من بعض، ثم أخذ مادة الأصل الواحد فصنفها إلى أصل وفرع، جاعلا اللفظ القديم أصلا في دلالته واستعماله، والصيغ المشتقة منها فرعا في دلالتها الثانية واستعمالها المجازي، وقد تعددت دلالات الأصل إلى خمسة أصول، وهذا ينم على ما لابن فارس من مقدرة وبراعة في إيجاد الدلالة الأصلية للجذور اللغوية.

فالعودة إلى الجذر الأصلي للكلمة قد يساعد إلى حد بعيد في الكشف عن معالمها، ومعرفة الجذر تتصل اتصالا وثيقا بالاشتقاق وطرقه في اللغة، وهو بشكل عام الوسيلة التي تتحقق بها الصلة بين كلمات اللغة، وهذه الصلة قوامها اشتراك الكلمات في جذر واحد ثابت لا يتغير؛ وهو ما يعبر عنه المعجميون باسم "الاشتراك في المادة" إذ يجعلون حروف هذا الجذر مدخلا إلى شرح معاني الكلمات ودلالاتها التي ترجع إلى جذر أو أصل واحد يُشَكِلُ البنية الأساسية للكلمة، فالألفاظ التي تشترك في الحروف الأصلية تشترك مفرداتها في معنى عام، على أن تتميز هذه الألفاظ بمعان خاصة ناشئة عن صيغتها الجديدة.

ويمكن القول إن تمرس ابن فارس بالاشتقاق هو الذي أكسبه مرانة قادرة على التمييز الدقيق بين معاني الكلمات، فهو لا يقنع من تفسير الكلمة بذكر ما يرادفها وإنما يحلل الكلمة، ويردها إلى جذورها، ويعتصر من هذه الجذور معنى يحمل سمات الأصل الثلاثي، وقد جمع بعض اللغويين هذا تحت اسم المشترك اللفظي، لكن ابن فارس يميز بين الدلالتين بناءا على ما يوحي به أصل كل واحدة من هذه الكلمات.

مراجع البحث وإحالاته:

1- حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ، دار مصر للطباعة ، مصر، ط2 ، 1968 ، ج2 ، ص:435.
2- فرحات عياش ، الاشتقاق ودوره في نمو اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995 ، ص:29.
3- عبد السلام هارون ، مقدمة تحقيق معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر، 1979 ، ص:41.
4- عبد الكريم حسن جبل ، الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة - دراسة تحليلية نقدية- دار الفكر، دمشق، 2003، ص:27.
5- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1979 ، ج6 ، ص:54.
6- حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ، ج 2 ، ص: 445.
7- العمري بن رابح ، الألمعية في الدراسات المعجمية ، دار الوعي للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص: 113.
8- حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ، ج2، ص437
9- رشيد عبد الرحمن العبيدي ، تاريخ العربية ، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ، العراق ، ص:93.
10- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج4 ، ص:442.
11- عبد السميع محمد أحمد ، المعاجم العربية . دراسة تحليلية . دار الفكر العربي ، سوريا ، ص:51.
12- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج1 ، ص:6.
13- حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ، ج2، ص:436 – 437.
14- المصدر نفسه ، ج2 ، ص:453.
15- عبد السلام هارون ، مقدمة تحقيق معجم مقاييس اللغة ، ص: 39.
16- إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، مكتبة الأنجلو مصرية ، مصر، ط6 ، 1978 ، ص:08.
17- أحمد عبد المجيد هريدي، نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، مكتبة الزهراء ، مصر، 1988 ، ص: 04.
18- السيوطي (جلال الدين) ، المزهر في علوم اللغة ، شرح وضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، دار الكتب العربية ، مصر، ج1 ، ص:346.
19- الشاطبي ، الموافقات، تح: عبد الله دراز، المكتبة التوقيفية ،ج 2، 2003، ص:56.
20- ابن جني ، الخصائص، تح: عبد الحليم بن محمد ، المكتبة التوفقية ، ج3 ، ص:70.
21- هاني هبد الرحمان عبد الهادي، الدلالة المشتركة في اللغة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2001، ص:07.
22- ربيعة برباق، الدلالة المعجمية عند العرب - دراسة نظرية تطبيقية – رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، 2012، ص:77.
23- عيد محمد الطيب، المعجمات اللغوية ودلالات الألفاظ، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض ، ط1، 2007، ص:32.
24- ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، ص:66-67.
25- ربيعة برباق ، الدلالة المعجمية عند العرب - دراسة نطرية تطبيقية – ص:77.

26- عبد اللطيف الصوفي ، اللغة ومعاجمها في اللغة العربية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ص:142.

27- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج2 ، ص:140.

28- أحمد قدور و سماح الشب، الاشتقاق في مقاييس اللغة لابن فارس، مجلة جامعة حلب، سوريا، ع36، 1999 ، ص:10.

29- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج1 ، ص:427.

30- المصدر نفسه ، ج1 ، ص:212.

31- محمود عبد الله جفال ، النظرية الثلاثية في أصول ألفاظ العربية عند ابن فارس ، مجلة دراسات، الكويت ، م28 (ملحق) ، 2001 ، ص:854.

32- حسين نصار ، المعجم العربي نشأته وتطوره ، ج2، ص438

33- غازي مختار طليمات ، نظرات في علم الدلالة عند أحمد بن فارس اللغوي ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، 1990 ، ص: 64

34- أحمد محمد قدور وسماح الشب، الاشتقاق في مقاييس اللغة لابن فارس، مجلة بحوث جامعة حلب، ع 36 ، 1999 ، ص: 09.

35- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، (هف) ،ج6 ، ص: 10.

36- المصدر نفسه ، مادة (عقم) ، ج4 ، ص:75.

37- المصدر السابق ، (عقم) ،ج4 ، ص:75.

38- المصدر السابق نفسه ، مادة (عمد) ، ج4 ، ص:137.

39- المصدر السابق نفسه ، مادة (عمد) ، ج4 ، ص:137.

40 - المصدر نفسه ، مادة (عمد) ، ج4 ، ص:137.

41- رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط6 ، 1966 ، ص:295.

42- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج3 ، ص:183.

43- المصدر نفسه ، ج3 ، ص:184.

44- المصدر السابق ، ج2 ، ص: 406.

45- المصدر السابق نفسه ، ج2 ، ص:167.

46- نفسه:ج2 ، ص:23.